

نصيحة الرفيق بخطر "أهل التشقيق"

رائد بن عبد الجبار المهداوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

فكنت قد كتبت مقالاً عنوانه "نصيحة الأريب بخطر أهل التخبيب" بتاريخ: 21/03/1430 كشفت

فيه - ناصحاً ومحذراً - صفة من صفات المنافقين، قد تخفى على كثير من إخواننا السلفيين هي:

"التخبيب"، وفي هذا المقال أكشف - إن شاء الله - عن صفة أخرى هي: "التشقيق"، فأقول وبالله

التوفيق:

التشقيق: مصدرٌ أصله الفعل (شَقَّ)، قال أبو الحسين بن فارس: "الشين والقاف أصلٌ واحد صحيح،

يدلُّ على انصداعٍ في الشيء، ثم يحمل عليه ويشقُّ منه على معنى الاستعارة. تقول: شَقَّقت الشيء أشقّه

شَقًّا، إذا صدعته. ويده شقوق، وبالدابة شُقاق" [معجم مقاييس اللغة (3/170)، ط: دار الفكر،

تحقيق: عبد السلام هارون].

قلت: فمن هذا الأصل استعير لفظ "التشقيق" للتعمُّق والتكُّلف في إخراج الكلام على أحسن مخرج ،

فكأن المتفعر في كلامه لشدة تكلفه وتعمُّقه يشقُّ اللفظ ويصدعه، أو كانَّ فيه يتشقق وينصدع أثناء

تكلمه وتكلفه.

وأهل الباطل عموماً، والمنافقون خصوصاً يولون تحسين الألفاظ وتمنيقها وسجعها والتعَرُّ فيها اهتماماً كبيراً؛ لأنّ هذا من وسائلهم الخبيثة في صرف الناس - عن الحق - إليهم، من خلال قلب الحقائق، والخن في القول، فيستميلون قلوب الضعاف لفتنتهم.

لذلك خاف النبي - صلى الله عليه وسلم - على أمته لسان المنافق وحكمته الظاهرة.

فقد أخرج أحمد في "مسنده"، وابن بطة في "الإبانة" وهو في "الصحيحة" (1013) عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مرفوعاً: "إنّ أخوف ما أخاف على أمتي كلّ منافقٍ عليمٍ اللسان".

وفي لفظ: "إنما أخاف على هذه الأمة كلّ منافقٍ يتكلّم بالحكمة ويعمل بالجور" [أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" وانظر "الصحيحة" (7/608)].

وأخرج الطبراني في "الكبير"، وابن حبان في "صحيحه" والبزار في "مسنده" وهو في صحيح الترغيب والترهيب (132) عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-

"إنّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كلّ منافقٍ عليمٍ اللسان".

فالمنافق العليم اللسان يوظف لسانته في "تنفيق نفاقه، وترويح غشه وتلبيسه".

قال المناوي - رحمه الله -:

“(كل منافق عليم اللسان)، أي: عالم للعلم، منطلق اللسان به، لكنه جاهل القلب، فاسد العقيدة، يغرُّ الناس بشقشقة لسانه، فيقع بسبب اتباعه خلق كثير في الزلل...” [“فيض القدير” (1/286) ط: العلمية]

وقال- أيضاً- كلاماً أنفس من سابقه:

“(كل منافق عليم اللسان)، أي: كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاضد بها، يدعو الناس إلى الله ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للناس التنسك والتعبد ويسارر ربه بالعظام، إذا خلا به ذئب من الذئاب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذر منه الشارع - صلى الله عليه وسلم - هنا حذرا من أن يخطفك بجلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بتنن باطنه وجنانه” اهـ. [“فيض القدير” (2/531) ط: العلمية]

فلله درّه من عالم ما أدقّ وصفه، ويكأنّه يتكلم عن منافقي زماننا!

فما نفعُ الاستكثار من العلوم إن لم تحصّل لصاحبها التقوى والخشية!؟

فالمنافق يحرص على تحسين الظاهر وتزويقه وتمنيقه، ومن ذلك شقشقة الكلام، بينما باطنه خراب في خراب، لأنه حرم الفقه في الدين، فعلمه على لسانه لا في قلبه.

أخرج الترمذي في "سننه" وهو في "الصحيحة" (278) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

"خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، ولا فقه في الدين".

"والسمت الحسن: التزيي بزي الصالحين، وتحري طرق الخير، والتنزه عن المعاييب ظاهراً وباطناً.

والفقه في الدين: ما وقع في القلب، ثم ظهر على اللسان، فأفاد العمل، وأورث الخشية والتقوى، وأما الذي يتدارس أبواباً منه ليتعزز به ويتأكل به فإنه بمعزل عن الرتبة العظمى؛ لأن الفقه تعلق بلسانه دون قلبه" اهـ. بتصرف يسير من "تحفة الأحوزي" (7/378) ط: العلمية

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله -:

"قال ابن مسعود وغيره: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم بالخشية. وقال بعضهم: من خشي الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل.... وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين: أحدهما: على معرفة الله، وما يستحقه من

الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله، وإعظامه، وخشيته، ومهابته، ومحبه، ورجاءه، والتوكل عليه، والرّضى بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه، من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه. فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعاً ووقر في القلب فقد خشع القلب لله، وانكسر له، وذلّ؛ هيبةً، وإجلالاً، وخشيةً، ومحبةً، وتعظيماً. ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا، وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا..."

اهـ. [بيان فضل علم السلف على علم الخلف" ص(72-74) ط: دار البشائر، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، بتصرف يسير].

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبة خفيفة ، فلما فرغ من خطبته قال: "يا أبا بكر قم فاخطب"، فقصر دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلما فرغ من خطبته قال: "يا عمر قم فاخطب"، فقام فخطب فقصر دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و دون أبي بكر ، فلما فرغ من خطبته قال: "يا فلان قم فاخطب"، فشقق القول، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "اسكت - أو اجلس - فإن التشقيق من الشيطان، وإنّ من البيان لسحراً" و

قال: "يا ابن أم عبد قم فاحطب". فقام ابن أم عبد، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس، إنّ الله - عز وجل - ربنا، وإنّ الإسلام ديننا، وإنّ القرآن إمامنا، وإنّ البيت قبلتنا، وإنّ هذا نبينا - وأوماً بيده إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - رضيما ما رضي الله تعالى لنا ورسوله، وكرهنا ما كره الله تعالى لنا ورسوله.

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "أصاب ابن أم عبد، أصاب ابن أم عبد وصدق، رضيت بما رضي الله تعالى لي ولأمتي؛ ابن أم عبد"

[أخرجه الطبراني في "الكبير" وأورده الإمام الألباني في "الصحيحة" برقم (1225)]

وأخرج البخاري في "الأدب المفرد" برقم (875) وصححه الإمام الألباني فيه عن ابن عمر قال:

"قدم رجلان من المشرق خطيبان على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقاما فتكلمتا ثم قعدا.

وقام ثابت بن قيس؛ خطيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتكلم، فعجب الناس من كلامهما.

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب، فقال: "يا أيها الناس! قولوا قولكم، فإنما تشقيق الكلام

من الشيطان". ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن من البيان سحراً".

وأَتبع هذا الحديث الإمام البخاري في "الأدب المفرد" بأثر صحيح إسناده

الإمام الألباني عن أنس - رضي الله عنه - قال:

"خطب رجل عند عمر، فأكثر الكلام، فقال عمر: "إن كثرة الكلام في الخطب من شقاشق الشيطان"

وعَلّق الإمام الألباني في الحاشية بقوله:

"الشقاشق": جمع "الشقشقة"، قال في "المعجم الوسيط": هي شيء كالرئة، يخرجها الجمل من فيه إذا

هاج وهدر. قال ابن الأثير: شبه الفصيح المنطيق بالفحل الهادر، ولسانه بشقشقته، ونسبها إلى الشيطان لما

يدخل فيه من الكذب والباطل وكونه لا يبالي بما قال"

واعلم - وفقني الله وإياك لمرضاته - أنّ البلاغة التي أمر الله - تعالى -

بها رسوله في محاجة المنافقين في سورة النساء في قوله:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا

بَلِيغًا) [النساء: 63]

هي البلاغة المطلوبة شرعاً، وهي أبعد ما تكون عن التشقيق والتعبر؛ لأنها قائمة على تكميل المعاني وتبيين المباني، فلا تكون العبارة ناقصة تحتاج إلى ما يكملها في معناها أو مبناها؛ لذلك قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية:

“مرهم باتقاء الله، والتصديق به، وبرسوله، ووعدده ووعيدة”.

ولا ريب أنّ أكل المعاني، وأجل المباني وأبينها ما اشتمل على هذه المقاصد الجليلة، فأين المشققين للكلام، المتعبرين فيه، المتفهمين الباغين للبراء العنت من هذه المقاصد!

وقوله - صلى الله عليه وسلم -: “إنّ من البيان لسحراً” [أخرجه مالك، واحمد، البخاري، ومسلم، وغيرهم] يحتمل المدح والذم، وذلك بحسب مقاصد البيان وصفته كما تقدم.

نقل ابن حجر في الفتح [9/144] ط: دار مصر للطباعة] عن ابن التين قوله:

“والبيان نوعان؛ الأول: ما يبين به المراد. والثاني: تحسين اللفظ حتى يستميل قلوب السامعين، والثاني هو الذي يشبه بالسحر، والمذموم منه ما يقصد به الباطل، وشبهه بالسحر لأن السحر صرف الشيء عن حقيقته” اهـ.

فالبيان الواضح القائم على جمال العبارة، واختصار اللفظ دونما إخلال، البعيد عن التشقيق، والسجع المتكلف، والذي يؤدي المعنى المطلوب دون تطويل، وتكون مقاصده حسنة طيبة مشروع، أما تشقيق الكلام فمذموم مطلقاً، وفرق ما بين الاثنين.

ولأنه يغلب على كثير من أهل البيان التقعر والتشقيق - المعنى المذموم - عدّه الشرع - بمعناه المذموم - نفاقاً، فقد أخرج أحمد، والترمذي، والحاكم - وصححه على شرط الشيخين وأقرّه الذهبي - وهو في صحيح الجامع (3201) عن أبي أمامة - رضي الله عنه - مرفوعاً:

“الحياء والعِيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق”.

قال المباركفوري - رحمه الله - في “تحفة الأحوذى” [(6/147)، ط: العلمية] مفسراً (البيان):

“أي الفصاحة الزائدة عن مقدار حاجة الإنسان، من التعمق في النطق وإظهار التفاسيح؛ للتقدم على الأعيان. وقال في المجمع: أراد بالبيان ما يكون سببه الاجترأ، وعدم المبالاة بالطغيان، والتحرز عن الزور والبهتان” اهـ.

وقال المناوي - رحمه الله - في فيض القدير [(3/568) ط: العلمية]، و”التيسير شرح الجامع الصغير”

[(1/1036) ط: مكتبة الشافعي - الرياض]:

“ (شعبتان من النفاق) بمعنى أنهما خصلتان منشأهما النفاق، والبيان المذكور هو التعمق في النطق، والتفاح، وإظهار التقدم فيه على الغير؛ تيهًا وعجبًا، وقد يمتلق الإنسان إلى حد يخرج به إلى صريح النفاق وحقيقته، قال القاضي: لما كان الإيمان باعثًا على الحياء والتحفظ في الكلام والاحتياط فيه، عد من الإيمان، وما يخالفهما من النفاق..” اهـ.

وأخرج أحمد في “مسنده”، وأبو داود، والترمذي في “سننهما” وهو في “الصحيحة” (880) عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- مرفوعاً:

“إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها.”
قال في “النهاية”:

“هو الذي يتشدق في الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلاً بلسانها لفاً.”

ومن طرائف ما روي من أخبار أهل التشقيق، ما ذكره الذهبي في “السير” (10/547) في ترجمة هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي المتوفى بعد المئتين:

” قال المبرد: قال رجل لهشام الفوطي: كم تعد من السنين؟

قال: من واحد إلى أكثر من ألف.

قال: لم أرد هذا، كم لك من السن؟

قال: اثنان وثلاثون سنًا.

قال: كم لك من السنين؟

قال: ما هي لي، كلها لله.

قال: فما سنك؟

قال: عظم.

قال: فابن كم أنت؟

قال: ابن أم وأب.

قال: فكم أتى عليك؟

قال: لو أتى علي شيء لقتلني.

قال: ويحك! فكيف أقول؟

قال: قل: كم مضى من عمرك؟" اهـ

قال الذهبي - رحمه الله - معلقاً:

"قلت: هذا غاية ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم، عبارات وشقاشق لا يعبأ الله بها، يحرفون بها الكلم

عن مواضعه قديماً وحديثاً، فنعوذ بالله من الكلام وأهله" اهـ.

والله اعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

أبو عبد الرحمن

رائد بن عبد الجبار المهداوي

05/04/1430 الموافق: 31/03/2009